جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الانسانية

المقياس: منهجية وتقنية البحث التاريخي 1
السداسي الثالث
السنة الثانية ليسانس تاريخ

المحاضر رقم 06: علم التاريخ عند العرب من الطبري إلى ابن خلدون

- **العرب والتاريخ:**

تشير الكتابات والنقوش التاريخية إلى ظهور أربع ممالك في شبة الجزيرة العربية، ففي جنوبها سارت تلك الممالك في التطور خلال الفترة ما بين 1200 ق م و527م، حيث بدأت بثيوقراطية يحكمها أمير كاهن يمارس سلطة دينية وزمنية ثم تتدرج لتصبح ملكية دنيوية تسود فيها بعض الأسر من المحاربين والملاكين.

سجلت الكتابات المتوارثة بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السابع الميلادي بعض الكتابات المختلفة المتمثلة في أعمال البر والتقوى وتقديم الجزية وغيرها، ففي حين نجد أن هذه الكتابات دينية في طبيعتها إلا أن البعض الآخر اتجه إلى تخليد وتسجيل الفعاليات البشرية الهامة.

يشير الهمداني إلى وثائق ملكية حميرية حفظت واستفيد منها فيما بعد وإلى "زَبر" أو وثاق وسجلات للأنساب حفظتها بعض العوائل والبطون.

دلت بعض الروايات الموجودة في المصادر الأولى ومن بينها اليمانية أنها ذات طابع أسطوري، فبدلا من أن تصل إلينا روايات متينة نجد بعض الرواة يوردون قصص خيالية شعرية لتاريخ اليمن، ومن بين هؤلاء وهب بن منبه وعبيد بن شرية.

- **انتشار علم التاريخ عند العرب:**

كان للظروف السياسية وللعوامل الجغرافية أثر بالغ اتصل بتاريخ وظروف العرب في صدر الإسلام، إذ أن العصبية والتنافس بين عرب الشمال (مصر) وعرب الجنوب (يمن) أثر بالدرجة الأولى عن تلك الأخبار، وربما تكون المسافات البعيدة بين تلك المناطق سببا مباشرا أعاق علماء الشمال من زيارة اليمن والحصول على معلومات مباشرة عنها،حيث عرفت تلك الفترة رواة أولين عبارة عن قصاص وصلت لنا رواياتهم خالية من الفكرة التاريخية.

أما في شمال الجزيرة العربية فقد توفر لدى المناذرة كتب تتكلم عن أخبار عرب الحيرة وانسابهم وسيرهم استفاد منها المؤرخون فيما بعد، وقد تكلمت تلك الروايات عن حكايات وقصص للآلهة وأيضا الشؤون الاجتماعية ومآثر تلك الشعوب من غزوات ومعارك وفضائل بدوية وفكرة النسب والشرف الأصيل والحسب، فتداولت بذلك رواياتهم شفهيا وبصورة نثرية لعب من خلالها الشعر دورا أساسيا في الرواية الشفهية تخللته القصة، وبمرور الزمن أصبح هو الوثيقة التي تعزز صحة القصة، ومثال على ذلك يقول ابن فارس "الشعر ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرضت المآثر ومنه تعلمت اللغة"، وقد نشأت قصص الأيام في المجالس القبلية المسائية.

وباختصار فإن التاريخ عند العرب في تلك الفترة لم يشهد أي تطور نتيجة العديد من العوامل، لعل أهمها ما يلي:

- انتشار الأمية والجهل أثر بشكل مباشر على هذا الأمر بحيث لم يكن التاريخ معروفا بخصوصيته ومفاهيمه المتعارف عليها.
- غلب عليه الطابع الشفهي.
- بروز الشعراء الذين اعتبر شعرهم من أسس نقل الروايات والأحداث التاريخية.

أما في فترة الإسلام فقد أدرك العرب المسلمون ما للتاريخ من أهمية في بناء الحضارة الإسلامية فسعوا جاهدين من أجل الإحاطة به وهم مدفوعون به لذلك نظرا لحاجتهم الدينية والدنيوية له، فاستند الإسلام على تاريخية مكملة للأديان السماوية السابقة، حيث يرى أن الديانات الثلاث (اليهودية، المسيحية والإسلام) ذات جذر تاريخي واحد وهو الجذر الإبراهيمي، وأن العرب

هم حملة رسالة الإسلام لهم دور هام وبارز يتجاوز مجال الحدود الإقليمية والانتماء القومي، فكان لابد لهم من معرفة تواريخ الحضارات الأخرى إلى جانب تاريخهم الذي تأثر بدراسات الحديث النبوي الشريف.

اتجهت البداية الأولى للكتابة التاريخية عند العرب المسلمين إلى اتجاهين مهمين هما، الاتجاه الإسلامي أو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي أو اتجاه الأيام الذي يعكس التيار القبلي الذي استمر في مجتمع صدر الإسلام.

أثبتت الكتابات والاكتشافات الأثرية معرفة قدماء العرب في التدوين من خلال نقوشهم بالخط المسند على الحجارة منذ القرن الثالث الميلادي من أحداث مهمة عن مظاهر حياتهم المختلفة واتصالهم بالإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وقد ثبت بذلك وجود الحس التاريخي عندهم فكانوا يؤرخون بالأحداث العظام مثل عام الفيل وعام بناء الكعبة، أما بعد الإسلام فقد كان للقرآن الكريم دور كبير وحاسم في إظهار قدرات الله عز وجل، وقد تجسد ذلك في الآيات القرآنية التي تكلمت عن البحار والمحيطات والسماوات وقصص وتجارب الأمم السابقة، مما دعا بالمسلمين إلى معرفة المزيد عنها والتأمل فيما حدث لها وارتباط مصيرها بما قامت به من أعمال عوقبت عليها، يقول تعالى: { فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى} [النازعات 25-26].

اهتم المسلمون بتدوين الأحاديث النبوية للاستفادة منها في تفسير القرآن الكريم، ثم جاء اتساع نطاق الدولة الإسلامية ليكون ذلك حافزا للخلفاء معرفة أخبار الأمم الأخرى، فتعاظم بذلك الاهتمام بأخبار المناطق التي دخلت الإسلام، وأدى دخول الكثير من الشعوب (الفرس، اليهود، النصارى) إلى سعيهم لنشر تاريخهم بين المسلمين مما تضمن من إشارات إلى أمجادهم، ثم حدثت الفتنة الكبرى وما أعقبها من صراعات أدت إلى قيام أحزاب وطوائف تناصر فريقا ضد آخر، وعندما وصلت الدولة الإسلامية إلى أقصى إتساعها أحس المسلمون بنشوة انتصاراتهم والمكسب الذاتي الذي كسبوه بسبب الدعوة المحمدية، فأخذوا في شحذ الهمم من أجل العيش في مستوى ما حققوه من تطور ورقي وتوسع،فشرعوا في كتابة وتدوين تلك التجربة، فظهر بذلك العديد من

المؤرخين والمؤلفات التاريخية، وأخذ التاريخ حظه بين العلوم الأخرى في مرحلة نشاط حركة التأليف والترجمة والنقل، فاهتم الخلفاء بذلك وشجعوا النشاط العلمي في كافة المجالات والجوانب المختلفة.

- **مراحل تطور علم التاريخ عند العرب (من الطبري إلى ابن خلدون):**

في المرحلة الأولى تأثر التدوين التاريخي بالأسلوب السائد قبل الإسلام، وقد أطلق على مؤلفيه "الإخباريون"، ثم ظهر نمط آخر من الكتابة التاريخية التي تعالج موضوعا واحدا، ومن أهم رواده تقي الدين المقريزي وابن حجر العسقلاني والسيوطي، وابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ"، ثم وضع ياقوت الحموي "معجم الأدباء".

وبعد الغزو الصليبي في القرن 05 و06 الهجري تأثرت الكتابة التاريخية بتلك الأحداث، فبدأ يظهر في السير الملكية التركيز على صفات البطولة والجهاد، ثم حدث بعد ذلك رد فعل عندما اهتم المؤرخون بجمع التراث الإسلامي العربي وحفظه في مؤلف واحد خوفا عليه من الضياع، وكانت البداية لصدور تلك المؤلفات في عصر المماليك، ثم قامت مملكة الطوائف والتي سرعان ما تهاوت، مما دفع بالمؤرخين إلى تدوين ما وصلت إليه أمتهم من أسباب القوة والازدهار إلى عوامل السقوط والضياع، فاعتبر ذلك من أهم التطورات التي ألمت بعلم التاريخ الذي أصبح ينظر له كعلم له أصول وقواعد.

اتسم التأريخ العربي بمميزات وسمات خاصة معتمدا على مناهج متعددة للتدوين التاريخي أهمها:

- المنهج الحولي (تسجيل الأحداث التاريخية على أساس زمني تؤرخ لأحداث كاملة ابتداءً من العام الهجري الأول غالبا، ثم تنتقل إلى السنة الموالية).
- تاريخ الدول (تدوين تاريخ الدول أو الأسر الحاكمة).
- التاريخ بعهود الحكام والخلفاء (إبراز وتدوين تاريخ أي خليفة أو حاكم ما يذكر صفاته وخصاله وطريقة إدارته وحكمه، وهو أسلوب فارسي).
- الجمع بين تاريخ الدول والعهود (تجمع بين تأريخ الدول وعهود الحكام).

- الطبقات (ارتبط بعلم الحديث ذلك أن إثبات صحته تقتضي التثبت من الرواة وعدالتهم من خلال الإطلاع على سير حياتهم).
- الأنساب (جرى الاهتمام به لظروف وعوامل مختلفة منها توزيع الغطاء حسب النسب والسابقة للإسلام وظهور طبقات اجتماعية أرستقراطية).
- **تطور التاريخ عند العرب المسلمين:**

كانت السيرة النبوية نموذج هام في الكتابة التاريخية عند المسلمين وقدوتهم في الحياة، حيث بدأ المؤرخون المسلمون في جمع كل ما تعلق بالتشريع الإسلامي تحت مسمى "السيرة"، ثم اتسع نطاق تلك الدراسات لتشمل ما عُرف "بالمغازي" أو الغزوات التي قام بها الرسول –صلى الله عليه وسلم– في سبيل نشر رسالته، كما أن القرآن الكريم كان له أثر واضح وجلي في الوعي التاريخي، ففكرة المصير والبعد الحضاري وأخبار الأمم القديمة والرسالات السماوية كلها وجدت في القرآن، وبالتالي فقد كان المحفز الرئيسي للاهتمام و جمع وتدوين التاريخ الإسلامي، لتتطور فيما بعد الكتاب التاريخية عند العرب المسلمين لتتخذ أبعادا أخرى على طريقتين عمودية وأفقية، ومن المؤرخين البارزين في هذا المجال المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وابن حوقل "صورة الأرض"، وابن بطوطة "تحفة النظار".

انتقل العرب بالإسلام في ظرف قياسي ووجيز إلى مصاف الأمم المنافسة على الرقي والتفوق الحضاري، وشهدت الحضارة الإسلامية بروز مفاهيم جديدة أطلقها الإسلام، ورسخها في أتباعه، جعلت منها متميزة بخصوصيات تنفرد بها عن غيرها وهي:

- حضارة منفتحة.
- حضارة مرنة قادرة على التلاؤم مع كل ما هو ضروري للتطور.
- حضارة ملزمة بالقيم والمثل العليا للدين.
- حضارة غير عنصرية.
- حضارة إنسانية شاملة.
- حضارة حرية واختيار واقتناع تسمو بالإنسان إلى مصاف المسؤولية.

دوّن الطبري في كتابه "تاريخ الطبري" كل ما تعلق بالتاريخ العربي، وربط كل الحوادث التاريخية بتسلسل زمني ودقيق حيث يقول: "وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان، من لدن ابتدأ ربّنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم، من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه، فشكر نعمه، من رسول له مُرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف فزاده إلى ما بتدأه به من نعمه في العاجل نعما".

ذكر ابن الخطيب (القرن 14م) أن الكتابة التاريخية ليست مجرد عملية نقل للأحداث ذات الطابع السياسي ولا هي دراسة لسير الملوك والسلاطين بل تتعدى ذلك إلى أمور أخرى، إذ هي تصوير للحياة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية، وبكل ما تعنيه من تقدم ورقي أو تخلف واندثار، فالمؤرخ في هذه الحالة يتابع موضوعه بكل دقة وتحرّي، حيث ركز ابن الخطيب على الوصف الجغرافي لكل مكان تكلم عنه وجعل وصفه مدخلا لبحثه التاريخي، وهذا ما عُرف حينما تكلم عن غرناطة في مقدمة كتابه "الإحاطة"، وبهذا فيمكن اعتبار ابن الخطيب من الأوائل الذين نادوا إلى فكرة انفتاح التاريخ على العلوم الأخرى مثل ما جاءت به مدرسة الحوليات في فرنسا.

أصبح تاريخ الطبري علما مكتمل البنيات مع جهود كبار المؤرخين، حيث يمثل كتابه قمة ما وصلت إليه الكتابة التاريخية عند العرب، فقد كان الطبري لا يكل ولا يمل وتتلمذ على يد أساتذة في بغداد والكوفة والشام ومصر، وقد بلغ في علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة كبيرة، ولذا فإن طريقته في نقد الروايات تتجه إلى الإسناد، وقد تأثر أسلوب كتابته بنظرته إلى الروايات، فهو في حرصه على إعطاء الروايات المختلفة حول أي حادثة تاريخية لا يستطيع تقديم تاريخ متصل به.

يبدأ تاريخ الطبري بالخليقة من الرسل والملوك في قديم الأزمان ثم ينتقل إلى تاريخ الساسانيين والعرب، ثم التاريخ الإسلامي حتى عصره (302هـ).

- **التاريخ عند ابن خلدون:**

أحدث ابن خلدون المولود في تونس شهر رمضان سنة 732هـ ثورة منهجية في الكتابة التاريخية، حيث انتقل به من مجرد الإخبار عن الدول والأيام والسوابق من القرون الأولى كما كان

سائدا من قبل، إلى الإخبار عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال.

ففي فاتحة مقدمته اعتبر ابن خلدون التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال تُشدّ إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقبال (جمع قيل، أي ما يقوله الناس)،ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن إخبار الأيام والدول والسوابق من القرن الأول، تنمو فيها الأقوال وتُضرب فيها الأمثال وتُطرّق بها الأندية إذا غصّها الاحتفال وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان لهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبارها عميق، فهو لهذا أصيل الحكمة عريق.

يفرق ابن خلون المؤرخين المسلمين الذين سبقوه إلى نوعين، الأول استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم والأمر العمم كالمسعودي ومن كان على شاكلته، أما النوع الثاني عدل عن الإطلاق إلى التقيد واستوعب أخبار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته، وقد تعددت أسماؤهم ومدارسهم وتوسعت كتاباتهم التاريخية لتشمل الفتوحات والطبقات وسواها من المواضيع التاريخية، ومنهم: عروة بن الزبير 94هـ، موسى ابن عقبة 141هـ، محمد بن سعد 230هـ، عوانة بن الحكم 147هـ، لوط بن يحي 157هـ، سيف بن عمر 180هـ، نصر بن مزاحم 212هـ، محمد بن جرير الطبري 310هـ...الخ.

سطعت أسماء العديد من المؤرخين العرب منذ القرن السادس والسابع ومن أهمهم ابن الأثير 620هـ ليشهد القرن الثامن الهجري بروز أسماء إلى جانب ابن خلدون 808هـ، من بينها الذهبي 748هـ، وياقوت الحموي 626هـ، وأبو الفداء 732هـ وغيرهم، في فترة شهد فيها التاريخ مرحلة كبيرة من التطور ليتفوق ابن خلدون في طروحاته بما طرحه من مواضيع تحتاج إلى رؤية حضارية شمالة.

إن المتتبع لما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن التاريخ يرى إدراك هذا الأخير لمختلف عملياته وخطواته، وهو يستهجن نقل المؤرخين عن بعضهم أو عن الرواة دون تدقيق أو تمحيص، لاسيما أن بعضا منهم قد رأى أن النقل الدقيق أمانة من الناقل وضمانا للأمة الحقيقية.

وضع ابن خلدون قواعد وأسس في البحث التاريخي، وكانت دراسته سباقة حتى لعلماء الغرب في فلسفة التاريخ، وقد علقوا على ذلك في كتاباتهم ومن بين ما كتبه أحدهم: "يستهل ابن خلدون مقدمته بمقطع رائع يُشعر قرّاءه بأنه أمام نفحة ستقود ديكارت بعد ذلك بثلاثة قرون وليس مثال ذلك السبق بنادر بين تراث الأدب العربي الإسلامي الذي خلّفه لنا العصر الوسيط".

أما منهجه في البحث فيعتمد على:

- ملاحظة الظواهر الاجتماعية عند الشعوب التي زارها.
- تعقب تلك الظواهر في العصور السابقة لعصره.
- تعقب تلك الظواهر في شعوب لم يزرها ولم يحتك بها.
- الموازنة بينها.
- التأمل فيها للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية واستخلاص قانون لإخضاع تلك الظواهر له في الفكر السياسي وعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ.

مراجع المحاضرة:

- رشيد الخيون: الطبري في تاريخه طي دهور الأمم والملوك في مجلدات
- محمد حواش: منهج الكتابة التاريخية عند ابن خلدون ومدرسة الحوليات، دراسة مقارنة
- حسن مؤنس: التاريخ والمؤرخون

حميد مجول النعيمي وآخرون: إضاءات مشرقة في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين